الخط العربي وأخطاء النطق (*)
قضية للتفكير

أ.د.أحمد قايد الصايدي(*)

مقدمة

اللغة هي أهم مقومات الأمة. ولتدمير أمة من الأمم، لا بد من تدمير مقوماتها، بدءاً بلغتها القومية، التي تمثل أداة تفكيرها ووعاء ثقافتها وحضارتها وعنوان شخصيتها وتميزها ووسيلة تخاطبها وتفاهمها وقاعدة تعايشها وتماسكها وانسجامها. وقد تعرضت أمتنا منذ بدء النشاط الاستعماري الأوربي، في مطلع العصر الحديث، لاستهداف، اتخذ أشكالاً مختلفة. فإلى جانب احتلال أرضها ونهب ثرواتها، عمل المستعمرون على تدمير لغتها وتشويه تاريخها وتزييف وعيها وتيئيس أجيالها واختراق نخبها وتفكيك منظومة قيمها والتأثير على تفكيرها وسلوكها وتحويل أبنائها إلى مستهلكين لا منتجين، مقلدين لا مبدعين، يعيشون على فتاة الغرب المادية والفكرية، مبهورين بمظاهر حياته المادية، عاجزين عن الارتقاء إلى مستوى إبداعه الفكري، يقتاتون من فتات ما ينتجه، مادياً وفكرياً، ويجهلون أو يتجاهلون دور أمتهم التاريخي في بناء الحضارات القديمة والوسيطة والحديثة، تعمقت في نفوسهم مشاعر الدونية تجاه حضارة الغرب الحديثة، وارتبط معظم حكوماتهم وبعض نخبهم السياسية والثقافية والإعلامية، برباط التبعية للغرب الرأسمالي، تماماً مثلما ارتبطت فعالياتهم الاقتصادية بعجلة صناعاته، وتحولت بلدانهم إلى أسواق لمنتجاته

---

* عُرضت هذه الورقة في ندوة (اللغة العربية وواقعها في الحياة العربية)، التي عُقدت في مركز الدراسات والبحوث اليمني، بصنعاء، يومي الأربعاء والخميس، ٢٦ – ٢٧ نوفمبر ٢٠١٤م. وكانت قد قُدمت قبل ذلك إلى المجمع العلمي اللغوي اليمني، بقصد لفت الانتباه إلى التدهور المتسارع في نطق الكلمات العربية، وإثارة النقاش، حول إمكانية البحث عن طريقة، تسهم في إيقاف هذا التدهور. ثم قُدمت، مع بعض الإضافات، في المؤتمر التأسيسي للمعهد العالمي للتجديد العربي، الذي انعقد في مدريد بأسبانيا، في الفترة من ٢٧ وحتى ٣٠ يونيو ٢٠١٩م.

* قسم التاريخ والعلاقات الدولية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة صنعاء.

ورجال أعمالهم إلى وكلاء تسويق لشركاته، على حساب نهضتهم الاقتصادية وتحررهم السياسي.

كل ذلك أدى إلى حالة من التردي العام، في كل أوضاعنا السياسية والاقتصادية والثقافية، لعل من أبرز مظاهره هذا التردي سياساتنا التعليمية، التي نلمس نتائجها ونرى مخرجاتها، ماثلة أمامنا بوضوح. فقد تدنى المستوى التعليمي، خلال العقود الماضية، في جميع الأقطار العربية، بصورة توحي بأن الأمر لم يحدث صدفة. وهذا يلقي على عواتقنا واجباً قومياً، لا بد أن نضطلع به، وهو العمل على إحداث نهضة تعليمية، تؤسس لنهضة حضارية شاملة في الوطن العربي. إذ لا يمكن لأمة أن تنهض وتتطور وتحتل مكانتها اللائقة بين الأمم، دون أن تحقق تقدماً في مجال التعليم. وحري بنا أن نجعل قضية التعليم والنظام التعليمي والسياسات التعليمية القضية الأولى في مشروعنا النهضوي، فهي القضية التي تؤسَّس عليها وتنطلق منها كل القضايا الأخرى، في كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. فلا تقدم في البنية الاقتصادية، ولا رقي في الحياة الاجتماعية، ولا تطور في الممارسة السياسية وفي نظم الحكم، دون وجود التعليم المتطور.

وترتبط بقضية التعليم، مسائل كثيرة تؤثر وتتأثر بها، على رأسها مسألة اللغة. وهي مسألة جوهرية، في حياة الأمم وثقافاتها. ومن المؤسف أن أكاديميينا ومدرسينا وكتابنا وإعلامييينا وخطباء مساجدنا، وحتى قضاتنا (بعض القضاة يلحن في تلاوة الآيات القرآنية، عند نطقه بالحكم)، يتعاملون اليوم مع لغتهم العربية، بقدر من الإهمال واللامبالاة، بل وبقدر من التدمير، الذي قد لا يكون متعمداً. ولكنه سيؤدي حتماً، سواءً أدركوا هذا أو لم يدركوا، إلى تدمير أهم مقومات أمتهم، وأهم عنصر في شخصيتها وفي بنيتها العقلية وتكوينها المعرفي.

إن تعاملنا مع لغتنا العربية، التي كانت ذات يوم لغة الحضارة وأداة العلم، بفروعه المختلفة، النظرية منها والتطبيقية، هو تعامل يخدم المخططات الهادفة إلى تدمير هذه الأمة وإلغاء وجودها، كأمة واحدة ووطن واحد. وهي مخططات تتجلى أمامنا اليوم في ما نشهده في الوطن العربي، من أحداث مدبرة لتمزيقنا، شعباً وجغرافيا، وتحويلنا إلى كيانات مجهرية صغيرة، ذات طابع

ديني _ طائفي _ عرقي _ جهوي، عاجزة عن مقاومة الأطماع الخارجية، خاضعة للرأسمالية الغربية والصهيونية العالمية، تابعة لها وخادمة لمصالحها الاقتصادية ومشاريعها السياسية، ومشغولة بصراعاتها العبثية.

وفي هذا السياق، سأحاول أن أسلط الضوء على مظهر من مظاهر التدمير، الذي تتعرض له لغتنا العربية الغنية والجميلة، من قبلنا نحن، المنتمين إليها، لا سيما عبر وسائل إعلامنا المختلفة. وأعني به نطق الكلمات العربية، التي أصبح كل فرد منا ينطقها بطريقته، وأحياناً ينطقها، هو نفسه، بصور مختلفة. ويكفي أن نتابع وسائل الإعلام ونستمع إلى المذيعين والمذيعات، لنقف على مدى ما وصل إليه الأمر من سوء. فأخطاء نطق الكلمات العربية، أصبحت متفشية، بصورة مفزعة، ومنذرة بانهيار اللغة العربية بالكامل، إذا ما استمر الحال على ما هو عليه، ولم تنهض المؤسسات المعنية في وطننا العربي بواجبها، وتضطلع بدورها في مواجهة هذا السوء، ووضع حد له. لأنه إذا لم يجابه، فسوف يكون أثره التدميري، بالنسبة لأجيالنا القادمة أوسع وأشمل، وسيأتي يوم تندثر فيه هذه اللغة الجميلة، التي خدمت العلم والحضارة، وانتشرت مفرداتها في معظم لغات العالم الحية.

وسأطرح هنا ثلاثة أسئلة محورية:

السؤال الأول: هل توجد مشكلة في نطق الكلمات العربية ؟
السؤال الثاني: إذا كانت هذه المشكلة موجودة، فما سببها ؟
السؤال الثالث: إذا كانت المشكلة موجودة، وسببها معروفاً، فما هو الحل ؟

ونظن أن الإجابة عن السؤالين الأولين لا تتطلب نقاشاً طويلاً. فمظاهر المشكلة ماثلة أمامنا بشكل واضح، ولا يمكن إنكارها. وتحديد السبب أمر ميسور، ولا يمكن الاختلاف عليه. فلم تبق إذاً إلا محاولة الإجابة عن السؤال الثالث. وهي محاولة تحتمل الاختلاف وتتسع للاجتهاد. ولذا يتطلب الخوض فيها نوعاً من التخصص، وهو أمر لا أدعية، ولكني مضطر إلى أن أغامر، ما دام المتخصصون القادرون لا يأبهون بهذا الأمر.

ومن نافلة القول أن الخوض في هذه المسألة يتطلب تحديد المرجعية، التي يجب أن يرجع إليها الجميع، ويصبح اجتهادها ملزماً لنا، تجنباً لفوضى الاجتهادات. لأننا لا نهدف من طرحها استبدال فوضى نطق الكلمات، بفوضى الاجتهادات، التي قد لا تتوقف. وعلى ذلك، وتوخياً لضبط هذه المسألة، نتوجه إلى مجامع اللغة العربية في الوطن العربي، فنطرح المشكلة ونوصِّفها، بقدر علمنا، ونرى رأياً أولياً لحلها، وننتظر، بعد ذلك، رأي المرجعية اللغوية وإجاباتها المحددة على تساؤلاتنا القلقة، وإجراءاتها العملية، الكفيلة بتجاوز هذه المشكلة.

بعض مظاهر المشكلة:

ظهرت المذيعة على شاشة التلفزيون، بملابسها الأنيقة ومكياجها المحكم، وشرعت تقرأ نشرة الأخبار. واستوقفتني في قراءتها أخطاءٌ في نطق الكلمات، شغلتني عن متابعة مضمون النشرة. ولم أعد أدري، لفرط ثقتها بنفسها وبسلامة نطقها، وهي تواصل القراءة، بنبرة الواثق المتمكن، لم أعد أدري أهي على خطأ، أم أن ما تعلمته على أيدي أساتذتي، من نطق الألفاظ وقواعد اللغة، هو الخطأ، أم أن المشكلة تكمن في طريقة رسم الكلمات العربية، التي تؤدي إلى أخطاء في القراءة، يصعب تجنبها، ما لم نُعِد النظر في هذه الطريقة ذاتها؟

بدأت المذيعة الخبر الأول بعبارة (وقَع اليوم). وتهيأت أذناي لاستقبال تفاصيل ما وقعت من أحداث في هذا اليوم. إلا أني فوجئت بأن المذيعة تتحدث عن توقيع اتفاقية. ولكنها بدلاً من تشديد القاف، أي بجعله حرفين، خففته، فجعلته حرفاً واحداً، أي بدلاً من (وقَّع = وقّع) نطقته (وقَع). فاختلف معنى اللفظ، من معنى التوقيع، إلى معنى الوقوع.

وواصلت المذيعة قراءتها لنشرة الأخبار، دون أن تبالي بمثل هذه الأخطاء، وما تحدثه من التباس لدى المشاهد _ المستمع. واستوقفتني في قراءتها كلمات وعبارات عديدة، مثل: (قُبِض عليه)، بضم القاف وكسر الباء، أي بصيغة المبني للمجهول، بمعنى أُلقي القبض عليه من قبل فاعل مجهول، أضحت على لسان المذيعة (قَبَض عليه)، بفتح القاف وفتح الباء، بمعنى هو

قبض على شخص آخر، فأضحى هو الفاعل، وليس هو من وقع عليه الفعل، فأضاعت المعنى المقصود في الخبر. و(الإعلام)، بمعنى الإخبار، التي أضحت (الأعلام)، جمع عَلَم، وهو الراية، أو الشخصية البارزة. و(مسيِّلة) للدموع، بكسر الياء وتشديده، أي مفعِّلة، بمعنى تؤدي إلى سيلان الدموع، أضحت (مسيَّلة)، بفتح الياء وتشديده، أي مفعَّلة، بمعنى سُيِّلت بفعل فاعل مجهول. و(الإعداد)، بمعنى تهيئة أمر ما، تحولت إلى (الأعداد)، جمع عدد. ولا أدري إن كان هذا نوع من الدلال، أم أن المذيعة لا تفهم معاني الكلمات، التي تنطقها.

وإنصافاً للمذيعة، أقر هنا بأن طريقتها في نطق الكلمات، قد جعلتني أكثر انتباهاً وملاحظةً لأخطاء زملائها وزميلاتها، المذيعين والمذيعات، في مختلف الفضائيات والإذاعات العربية. وهي أخطاء تجعل هذه المذيعة مجرد نموذج لمعظم المذيعين والمذيعات. أما المذيع اليمني، فإنه يتفرد بطريقة في نطق بعض الكلمات، لا ينافسه فيها أحد، من نحو (دُعوة)، بمعنى (دَعوة).

وتتضاعف المشكلة في نطق اسماء الأشخاص والأماكن، تضاعفاً، يصل حد الفوضى. ولعل ذلك يرجع إلى تعدد إمكانيات نطق الاسم. فلعدم الالتزام بوضع الحركات (التشكيل)، عند كتابة النص، تبدو أمام القارئ إمكانيات في نطق الاسماء، لا حدود لها. ولا يُعصم من الخطأ إلا من يعرف الاسم معرفة أكيدة. فعلى سبيل المثال، اسم مدينة (عمران) في اليمن، يمكن أن يكون (عَمْران)، بفتح العين وتسكين الميم، أو (عُمْران)، بضم العين وتسكين الميم، أو (عِمْران)، بكسر العين وتسكين الميم ...إلخ. وفي سياق أخبار المعارك الدائرة هذه الأيام في تهامة اليمن، يتكرر ذكر معسكر (العمري) في منطقة باب المندب. ولم يتفق المذيعون العرب، بمن فيهم المذيعون اليمنيون، على نطق واحد لاسم (العمري). فبعضهم ينطقه بضم العين وفتح الميم، وبعضهم الآخر ينطقه بفتح العين وتسكين الميم.

ولا تقتصر أخطاء النطق على الاسماء والأفعال، بل يمكن أن تمتد إلى بعض الحروف. فحرف (مَنْ)، بفتح الميم، يمكن أن ينطق (مِنْ) أو (مِين) بكسر الميم. وهذا ما نلاحظه، على وجه الخصوص، في اللهجات الدارجة، التي أخذت تؤثر في اللغة الفصحى وتزاحمها. وقد ينتهي الأمر بها، مع مرور

الزمن، إلى أن تتحول من لهجات إلى لغات، تختلف كل منها عن الأخرى، وتحل محل اللغة الفصحى، التي توحد الشعب العربي كله.

وفي حين يستمر المذيعون والمذيعات، ونستمر نحن أيضاً، في ارتكاب الأخطاء، دون حرج، ينصرف الذهن إلى التفكير في هذه المشكلة الخطيرة والمتفاقمة: مظاهرها وأسبابها، ولماذا عجزت أمة بكاملها عن ضبط مفردات لغتها، كتابة ونطقاً، تاركة المجال لما يشبه فوضى اللغة، التي تؤدي إلى التباس في المعاني، قد يصل يوماً إلى العجز عن التخاطب والتفاهم. باعتبار اللغة وسيلة التواصل والتفاهم في المجتمع. فإذا أصبحت الألفاظ تنطق بطرق متعددة، فإنها تؤدي إلى معاني مختلفة. فيظن المتحدث أنه قد حمّل لفظه معنى معين، في حين يفهمه المتلقي بمعنى آخر. وهذا أمر له نتائجه الخطيرة. إذ قد ننتهي إلى حالة لا يفهم أحدنا فيها ما يقصده الآخر. ولنا أن نتصور الفوضى، التي ستحل في مجتمع لا يفهم أحدهم فيه، فهماً صحيحاً، ما يقوله الآخر، ولا يستطيع أن ينقل خبراً تلقاه، نقلاً سليماً، أو يصف حدثاً شاهده، وصفاً دقيقاً. كيف تبنى معرفة، على مثل هذه الفوضى، وكيف يتكون علم، وكيف تقام علاقات سوية، يسودها الفهم المشترك للمعاني والمقاصد؟

إن الأمر لخطير حقاً، رغم أن أحداً، كما يبدو، لا يتنبه لمدى خطورته، وما سيؤدي إليه في المستقبل، إذا استمرت فوضى نطق الألفاظ واستفحلت. فكل لفظ ينطوي على إمكانيات نطقٍ عديدة، وبالتالي يحمل معاني كثيرة ومتباينة، تربك الذهن وتحول دون توحيد الفهم، بين المتحدث والمتلقي. ومثال اللفظ (عمران) مثال واضح، إذ يمكن نطقه باثنتي عشرة صورة، على الأقل: أربع في حالة فتح العين (عَمْران، عَمَران، عَمِران، عَمُران)، وأربع في حالة ضمه (عُمْران، عُمَران، عُمِران، عُمُران)، وأربع في حالة كسره (عِمْران، عِمَران، عِمِران، عِمُران). ويتضاعف عدد صور النطق هذه في حالة تشديد الأحرف. والأمر ينطبق، بهذا القدر أو ذاك، على جميع الاسماء والأفعال وبعض الحروف، أي على جميع مفردات اللغة تقريباً.

ولعل من الطريف في هذا السياق، أن الرئيس السوري المعروف، شكري القُوَّتْلي، قد أضحى على لسان أحد المذيعين (القَوْتَلِي). فقد استمعت إلى برنامج من إحدى الإذاعات العربية (إذاعة دولة الكويت)، اسمه (رحلة

منوّعة)، أذيع، كما أتذكر، بين الساعة الواحدة والنصف والثانية بعد منتصف الليل. ومن المؤسف أنني سجلت اسم البرنامج والوقت، ونسيت أن أسجل تاريخ إذاعته. ولكن لا شك أن الإذاعة العربية المشار إليها تحتفظ في أرشيفها بتسجيل لذلك البرنامج، مثبت فيه تاريخ إذاعته.

كان المذيع يتحدث عن رئيس سوري، اسمه (القَوْتَلي)، بفتح القاف وتسكين الواو وفتح التاء. شد انتباهي اسم الرئيس، الذي لم اسمع به من قبل. ولأن المذيع كان يتحدث بثقة بالغة، فقد استبعدت أن يكون قد أخطأ في لفظ الاسم. وبدأت أشك في معلوماتي، كلما كرر نطق الاسم. فتشت في ذاكرتي عن ذلك الرئيس، فلم أجده. وبما أنني قد درست تاريخ سوريا المعاصر في إحدى ثانويات دمشق، وعشت سنوات من شبابي في تلك المدينة، فقد كانت حيرتي بالغة. إذ لم أقرأ أو اسمع عن رئيس بهذا الاسم. وقلت في نفسي، لعله يقصد الرئيس شكري (القُوَّتْلي)، بضم القاف وفتح الواو المشددة وتسكين التاء، فهو شخصية معروفة ومشهورة. ولكن أيعقل أن يجهلها المذيع، فيخطئ في نطق اسمها!!. وزادتني نبرة المذيع الواثقة تشوشاً، وشككتني بمعلوماتي.

واستطرد المذيع في استعراض حياة من اسماه (القَوْتَلي) حتى وصل إلى دوره في تحقيق الوحدة السورية _ المصرية، وجاء على ذكر اللقب المعروف، الذي أُطلق عليه في ذلك الحين (المواطن العربي الأول). عند ذلك أيقنت، أن الأساتذة السوريين لم يخفوا عني رئيساً من رؤسائهم، وأن ذاكرتي لم تخني، فالمقصود بالقَوْتَلي هو الرئيس السوري شكري القُوَّتْلي لا سواه. سامح الله المذيع، فقد ضلله الخط العربي، كما يبدو، وضلله جهله بالتاريخ العربي المعاصر. وكانت النتيجة أنه بدوره ضلل مستمعيه، دون قصد. وسيكون الأمر أدهى وأمر إذا تكرر مثل هذا الخطأ على مسامع الأطفال وتلامذة المدارس. فسيمحى مع التكرار الاسم الصحيح للرئيس السوري المذكور.

فإذا كان هذا هو الحال مع شخصية معاصرة معروفة ومشهورة، ما يزال يتذكرها ويذكر دورها كثيرون من الأحياء، فكيف بمن طوتهم القرون. وإذا كان المتحدث مذيعاً عربياً مؤهلاً علمياً، وفي إذاعة عربية رصينة، يمكن أن يكون لهما تأثير في جيل بكامله، ثم في الأجيال اللاحقة، فكيف يكون الحال في أوساطٍ

زادها من العلم قليل، وليس لها رسالة تثقيفية، كالرسالة، التي يفترض أن تحملها الإذاعات ووسائل الإعلام العربية الأخرى؟

والأطرف من هذا أنني، وأنا أروي هذه الحكاية لأحد طلاب الدراسات العليا الجادين، بجامعة صنعاء، وأعبر عن ضيقي وتبرمي، من هذه الأخطاء غير المقبولة، إذا به ينظر إليَّ باندهاش واستغراب، متسائلاً: أليس اسمه القَوْتَلي؟ فأدركت أن المصيبة قد عمت، ولم تعد تقتصر على الشارع وعلى المؤسسات الإعلامية، بل اتسع نطاقها، حتى شملت المؤسسات التعليمية، وأضحى طلاب المدارس والمعاهد والجامعات، وأساتذتهم أيضاً، يتشربون الأخطاء اللغوية والتاريخية، في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم. إلى هذا الحد بلغت الفوضى. أفلا يجب علينا ونحن نشاهد هذا كله أن نبحث عن السبب الكامن وراء هذه الأخطاء المتداولة، التي يزداد انتشارها يوماً بعد يوم، ونبذل الجهد في محاولة تصحيحها والحيلولة دون استفحالها؟

السبب الرئيسي وراء هذه المشكلة:

قد تكون هناك أسباب متعددة وراء هذه الفوضى في نطق الكلمات: كعدم الاهتمام باللغة العربية، من قبل الجهات المسؤولة، وتدني المستوى التعليمي في المدارس والجامعات، والضعف العام في اللغة العربية، في أوساط المذيعين والصحفيين والكتاب ومدرسي المدارس والمعاهد وأساتذة الجامعات والقضاة وخطباء وأئمة المساجد، وابتعاد الأجيال الجديدة عن عادة القراءة والاكتفاء بمشاهدة التلفزيون وقضاء وقت الفراغ في تصفح مواقع الإنترنت، ثم تفشي ظاهرة التقليد الأعمى في أوساط المذيعين والمذيعات والكتاب ومدعي الثقافة، في نطقهم وفي غريب ألفاظهم.

وظاهرة التقليد الأعمى هذه، ظاهرة عجيبة ومضحكة. إذ ما يكاد أحدهم يطلق عبارة، في سياق لا يتطلبها ولا تضيف إليه معنى، أو يُصَدِّر لفظاً خاطئاً أو مصطلحاً غريباً، أو يكرر لفظاً أو عبارة، في غير موضعهما، تكراراً سمجاً، لا تمليه حاجة، حتى يتلقف المشاهدون والمستمعون ذلك، ويرددونه دون كلل، متباهين، ظانين أنهم بذلك يحسنون الظهور بمظهر المثقفين.

فعبارة مثل (إذا صح التعبير)، وألفاظ مثل (مقاربة) و(بامتياز) و(تحديداً)، وحتى لفظ (ربما)، الذي يؤدي معنى الاحتمال، لكنه فقد لدى البعض وظيفته، لكثرة تكراره، في غير موضعه، كل هذه وأمثالها عبارات وألفاظ، أضحت في نظر البعض، ممن يكثرون ترديدها، على سبيل التقليد، بمناسبة وبدون مناسبة، في موضعها، وغالباً في غير موضعها، أضحت في نظر البعض مؤشراً دالاً على مستواه الثقافي المتميز. بل إن المذيعين والكتاب، أنفسهم، تفتنهم أخطاء بعضهم، فيسارعون إلى ترديدها، وتثبيتها في عقول جمهورهم.

ومن أظرف ما يدلل على خفة، إذا لم أقل رعونة التعامل مع الألفاظ العربية، من قبل الإعلاميين العرب، أن أحد المذيعين اليمنيين سمع مذيعة لبنانية، تنطق اسم منطقة في اليمن، وهي منطقة (القَبَّيْطَة)، بفتح القاف وتشديد الباء المفتوحة وتسكين الياء وفتح الطاء، تنطقها بضم القاف (القُبَّيْطَة)، لعدم معرفتها بهذه المنطقة، وجهلها طريقة نطق الاسم، فإذا بصاحبنا يسارع إلى تقليدها في خطئها، ويفاخر في ترديد الخطأ وتكراره، في تقاريره الإخبارية، رغم معرفته يقيناً بالمنطقة وبكيفية نطق اسمها، نطقاً صحيحاً. ومثلما حدث لمنطقة (القَبَّيطَة)، حدث لمدينة (قَعْطَبَة) اليمنية، بفتح القاف وتسكين العين وفتح الطاء وفتح الباء. فعلى سبيل التقليد، وربما أيضاً الرغبة في التميز والزهو، بدأ بعض المذيعين ينطقها (قُعْطُبَة)، بضم القاف وتسكين العين وضم الطاء وفتح الباء. هكذا تستهوينا الأخطاء في نطق الكلمات العربية، فنسارع إلى تقليدها، ونسهم بذلك في تدمير لغتنا، مع سبق الإصرار والترصد.

ولكن مع تعدد أسباب هذه الفوضى، فإن هناك سبباً رئيسياً، يشكل مصدر الأخطاء جميعها. وهذا السبب الرئيسي، في نظري، هو طريقة رسم الكلمات، أي (الخط). ولتوضيح هذه المسألة قد يتطلب الأمر استحضار المراحل، التي تطور عبرها الخط العربي، من حالة كانت تفتقر إلى تمييز الحروف المتشابهة، بعضها عن بعض، وتفتقر إلى ضبط حركة الحروف الساكنة، وبالتالي كانت تعاني من قصور في ضبط المعنى، إلى حالة من التمييز بين الحروف المتشابهة، عن طريق التنقيط، ومن ضبط الحركات، عن طريق التشكيل، وذلك بقصد ضبط المعنى. ومثل هذا الاستحضار سوف يساعدنا على تبين جوهر المشكلة، التي نعاني منها الآن.

مراحل تطور الخط العربي:

مر الخط العربي، كما هو معروف، بمراحل تطور طويلة. فقد انبثق، كما يُعتقد، من الخط النبطي. وفي اليمن كان يوجد الخط العربي، المعروف بخط (المسند). ومع مجيء الإسلام شاع استخدام الخط العربي الكوفي[١]. ثم أُدخلت على هذا الخط بعض الإضافات، بقصد ضبط النطق وتجنب التصحيف والتباس المعاني. حيث أدخلت على حروفه النقط، للتمييز بين الحروف المتشابهة. فمعظم الحروف العربية متشابهة في شكلها: (ب، ت، ث، يضاف إليها حرفي ن، ي، إذا جاءا في أول الكلمة أو في وسطها) و (ج، ح، خ) و (د، ذ) و (ر، ز) و (س، ش) و (ص، ض) و (ط، ظ) و (ع، غ) و (ف، ق). وكان عدم وجود النقط يسبب صعوبة في القراءة، بل واختلافاً فيها، وهو ما عرف ب (التصحيف)، نظراً لتشابه رسم الحروف وعدم وجود ما يميزها، بعضها عن بعض، كما يسبب اختلافاً في الفهم، بحسب الاختلاف في القراءة. وأصبح التمييز بين هذه الحروف أكثر ضرورة، لضمان قراءة القرآن الكريم، قراءة سليمة.

وترجع عملية تنقيط الحروف العربية إلى القرن الأول الهجري، السابع الميلادي. وقد استلهم المسلمون الأوائل الطريقة النبطية والسريانية في الكتابة، حيث كانت اللغتان تستعينان بالنقط، للتمييز بين الحروف المتشابهة.

وعندما دخلت أقوام غير عربية في الإسلام، وحاولت أن تتعلم لغة القرآن، تولدت الحاجة إلى مزيد من ضبط الكلمات، لضمان صحة نطقها وتجنب الالتباس والغموض في فهم معانيها. وهنا أدخل التشكيل، أي الحركات (الفتحة والضمة والكسرة والسكون، ثم التنوين والتشديد).

---

[١] لأن ما يهمنا في هذه الورقة هو ضبط نطق الكلمات، فقد فضلنا عدم التوقف عند شكل الخط، الذي تطور من الخط الكوفي المعقد، بأشكاله المختلفة، إلى خطوط أكثر سهولة، كخط النسخ والثلث والفارسي ...إلخ. وينسب خط النسخ، الذي حل محل الخط الكوفي، بدءاً من مطلع القرن الرابع الهجري، إلى ابن مقلة الشيرازي، المتوفَّى عام ٣٢٧هـ. وقد أضحت عملية نسخ الكتب، بفضل هذه الخطوط، المستحدثة، أكثر سهولة، مما ساعد على انتشار الكتب المنسوخة انتشاراً واسعاً.

ومع أن هناك من يرى بأن التشكيل، أي إزالة الإشكال عن الحرف، بضبط حركته، قد سبق الإعجام، أي تنقيط الحروف، للتمييز بين الحروف ذات الرسم المتشابه، فإن هذا أمر لا يعنينا الخوض فيه هنا، بقدر ما يعنينا لفت النظر إلى مستوى اليقظة، التي تمتع بها علماء اللغة، من أسلافنا، وحرصهم على معالجة كل ما من شأنه أن يلحق الضرر باللغة العربية. فعالجوا ذلك أولاً بأول، دون إبطاء أو تسويف، سواءً من حيث رسم الكلمات، أو من حيث فهم معانيها. والفهم السليم لمعاني الكلمات متوقف، بطبيعة الحال، على نطقها نطقاً سليماً، وهذا بدوره متوقف على رسمها رسماً دقيقاً، أي ضبط كتابتها، ضبطاً لا يترك مجالاً للخطأ في نطقها أو التباساً في فهم معانيها. حتى أن أولئك العلماء وقفوا أمام ما يحدثه رسم اسمي عمر (بضم العين وفتح الميم) وعمر (بفتح العين وتسكين الميم) من إشكال. فعمدوا إلى التمييز بينهما، بإضافة حرف (و) إلى الاسم الثاني، ليصبح (عمرو). وذلك لإزالة الإشكال فحسب. إذ أن حرف الواو يُكتب هنا ولا ينطق.

ومن أشهر من عمل في هذا المجال، أبو الأسود الدؤلي (١٦ ق. هـ - ٦٩ هـ / ٦٠٥ - ٦٨٨م)، الذي رسم الحركات بحبر أحمر، على هيئة نقط: نقطة فوق الحرف، تدل على الفتحة، ونقطة تحت الحرف، تدل على الكسرة، ونقطة أمام الحرف، تدل على الضمة، أما التنوين، فعلامته إضافة نقطة إلى نقطة الحركة، أي وضع نقطتين فوق الحرف أو تحته أو أمامه، بحسب نوع الحركة. ولعل استخدام اللّون الأحمر للحركات كان بقصد التمييز بين نقط الحروف، المكتوبة بنفس لون الحرف، وهو اللون الأسود، وبين نقط الحركات. وقد انتشرت طريقة أبي الأسود، ولكنها اقتصرت على المصاحف. وقيل أن الأسود الدؤلي هو نفسه من نقط الحروف المتشابهة لتمييز بعضها عن بعض، وقيل الحسن البصري، أو نصر بن عاصم، ...إلخ.

وفي العصر العباسي قام العالم العربي الكبير، الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي (١٠٠ _ ١٧٥هـ / ٧١٨ . ٧٩١م)، بتغيير رسم الحركات، بهدف التمييز، تمييزاً أكثر وضوحاً، بين تنقيط الحروف وبين تنقيط الحركات، فوضع الحركات على النحو الآتي: الفتحة، على شكل حرف ألف صغير مائل، فوق

الحرف. والكسرة على شكل ياء صغير، تحت الحرف. والضمة على شكل واو صغير فوق الحرف. أما التنوين، فعلامته تكرار الحركة.

إن الصعوبة في ضبط نطق الكلمات ترجع في الأصل إلى كون معظم الكلمات السامية، ومنها العربية، تظهر فيها الحروف الساكنة، ولا تظهر الحروف المتحركة (الألف والواو والياء)، التي إذا ما أُلحقت بالحرف الساكن، أكسبته حركة محددة. لهذا اجتهد علماء اللغة في حل هذا الإشكال، بإدخال علامات التشكيل، لكي تساعد في إظهار حركات الحروف الساكنة. ومن أشهر أنظمة التشكيل:

١. النظام النسطوري، الذي اعتمد اعتماداً كاملاً على النقط. وهو نظام غير شائع الاستخدام.

٢. النظام اليعقوبي، الذي ابتدعه العالم السوري، يعقوب الرهاوي (٦٣٣م - ٧٠٨م)، في القرن السابع الميلادي. وهو نظام شبيه بالنظام المعمول به اليوم في الغرب، والذي يستخدم الحروف المتحركة للتشكيل. وبفضل هذا النظام لا تعاني اللغات الغربية من مشكلة الحركات، نظراً لوجود الحركة، ممثلة بحرف متحرك، في بنية الكلمة ذاتها. مما يجعل نطق الكلمات، في هذه اللغات، نطقاً سليماً.

علماً بأن الغربيين لم يتوقفوا عن إدخال التعديلات اللازمة لضبط وتطوير كتابة الكلمات في لغاتهم. وقد لفت انتباهي وأنا اشتغل في بحث عن رحلة البعثة الدينماركية، التي زارت مصر والحجاز واليمن، في الأعوام، من ١٧٦١م، حتى عام ١٧٦٣م، وأقرأ المجلدات الأربعة، التي كتبها عن الرحلة عضو البعثة، كارستن نيبور، بالخط والإملاء السائدين في ألمانيا في ذلك الزمن، لفت انتباهي أنه لم يتغير، منذ ذلك الحين، شكل الحرف والخط فقط، بل وتغير عدد حروف بعض الكلمات. والحال نفسه ينطبق، بهذا القدر أو ذاك، على لغات غربية أخرى.

ورغم الجهود، التي بذلها علماؤنا في الماضي، في ضبط نطق الكلمات، عن طريق التشكيل، الذي يحدد حركة كل حرف، فإننا لا نتقيد بوضع التشكيل

عند الكتابة، لما يتطلبه ذلك من جهد ووقت. والنتيجة هي ما نراه من فوضى في نطق الكلمات، والتباس في معانيها. وقد أشار أبو الريحان، محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠هـ / ٩٧٣ - ١٠٤٨م)، إلى هذا العيب الكبير في الخط العربي، بقوله: "للكتابة العربية آفة عظيمة، وهي تشابه صور الحروف المزدوجة فيها، واضطرارها في التمايز إلى نقط المعجم، وعلامات الإعراب (التشكيل)، التي إذا تُركت استبهم المفهوم منها"[١].

وأتذكر الآن، أننا في طفولتنا، عندما كنا نتعلم نطق الحروف الهجائية، بحركاتها المختلفة، ونرددها بأصوات عالية، وبنغمات إنشادية، تُظهر حركاتها وتُسهِّل حفظها، كنا ننطقها هكذا: با _ بي _ بو _ تا _ تي _ تو ...إلخ. وكنا بطبيعة الحال لا نكتب الحروف المتحركة، لإظهار حركات الحروف الساكنة، بل نكتب علامات التشكيل، التي ما نلبث أن نهمل كتابتها، بعد أن ننتهي من حفظ حروف الهجاء. وإهمال كتابتها يؤدي إلى أخطاءٍ في النطق، وبالتالي إلى التباس في المعاني، كما أوضحنا.

فلو استعدنا هنا، على سبيل المثال، بعض الكلمات، التي أوردناها سابقاً، والتي ينطقها بعض الإعلاميين وننطقها نحن أيضاً، مع الأسف الشديد، نطقاً خاطئاً، وحاولنا أن نضبطها، بإدخال الحروف المتحركة في بنيتها، فإنها يمكن أن تكتب على النحو الآتي:

الكتابة الحالية	الكتابة مع التشكيل	الكتابة مع الحروف المتحركة
وقع	وَقَعَ	واقاعا
وقع	وَقّعَ	واققاعا
قبض	قُبِضَ	قوبيضا
قبض	قَبَضَ	قاباضا
دعوة	دَعْوَة	داعواة

[١] البيروني، نقلاً عن أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج١، ص ٢٣٧. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

دعوة	دُعْوَة	دوعواة
العمري	العُمَري	العوماري
العمري	العَمْري	العامري
القوتلي	القُوَتْلِي	القوواتلي
القوتلي	القَوْتَلِي	القاوتالي
القبيطة	القَبَيْطَة	القابيبطاة
القبيطة	القُبَيْطَة	القوبيبطاة
قعطبة	قَعْطَبَة	قاعطاباة
قعطبة	قَعْطبَة	قوعطوبة
من	مَنْ	مان
من	مِنْ	مين

وبهذه الصورة، لا يمكن لأي منا أن يخطئ في لفظ الاسماء أو الأفعال أو الحروف، ما دامت الحروف المتحركة، التي تظهر حركات الحروف الساكنة، جزءاً من بنية الكلمة.

خاتمة

بعد هذا الإيجاز، للجهود، التي بذلها علماء اللغة العربية في الماضي، بهدف ضبط الخط، ضبطاً لا يترك مجالاً للخطأ في النطق، أو التباساً في المعنى، يحق لنا أن نتساءل: لماذا عجز علماء ومجامع اللغة العربية، في زماننا، عن الالتفات إلى هذه المشكلة وابتداع حلول لها، كما فعل أسلافهم، رغم توفر إمكانيات مادية كبيرة لهم (ميزانيات، مرتبات، مكتبات، وسائل اتصالات، وسائل نشر ...إلخ)، لم تكن متوفرة لأسلافهم؟ أهو العجز العربي العام، الذي يعكس نفسه في كل مجالات المعرفة والحياة؟ وهل يمكن اليوم أن نأخذ بالطريقة المنسوبة إلى يعقوب الرهاوي؟ فنعمد إلى إدخال الحروف المتحركة في بنية الكلمات، كحروفٍ دالة على حركات الحروف الساكنة، كما هو الحال في اللغات الأوربية؟ فيوضع الألف بدلاً عن الفتحة والواو بدلاً عن الضمة والياء بدلاً عن الكسرة، في بنية الكلمة ذاتها، دون أن يُحذف الألف أو الواو أو الياء الأصلي (فتصبح عمران، مثلاً، عمران)، ويكرر الحرف، بدلاً عن علامة

التشديد (وقّع _ وققع)، وتتم معالجة ما يعتبر من خصائص اللغة العربية، كالتنوين؟ هل يمكن الأخذ بهذه الطريقة، أو بأي طريقة مناسبة، تتوافق عليها مجامع اللغة العربية؟ بدلاً من الإبقاء على علامات التشكيل الحالية، التي لا يستخدمها أحد عند الكتابة، بسبب وجودها خارج بنية الكلمة، من ناحية، ولما تتطلبه كتابتها من توقف عند كل كلمة وبذل مزيد من الجهد والوقت، من ناحية أخرى. وهل يمكن تصور، كم من الجهد والوقت والمال، تتطلبه عملية ضبط التشكيل، في حالة طباعة كتاب، أو إصدار مجلة أو صحيفة؟ في حين أن إدخال الحركات في بنية الكلمة، لا يحتاج إلا إلى بعض المران والتعود. ولنستحضر في أذهاننا الكتابة العَروضية، التي تختلف عن الكتابة الإملائية الحالية، وكيف أصبحت، بالمران والتعود، مألوفة في مجال الشعر. أفلا يستحق الأمر شيئاً من التفكير والجهد؟

إنها أسئلة نوجهها إلى مجامع اللغة العربية، وعلمائها، الذين هم أعلم وأقدر منا على معالجة هذه المشكلة، والذين يشاهدون التقويض اليومي لبنيان لغتهم، دون أن يحركوا ساكناً، رغم معرفتهم بأن اللغة هي أهم مقومات الأمة، وأن تدميرها يمهد لتدمير الأمة بكاملها، تاريخاً وثقافة ووجوداً. أسئلة نوجهها إليهم، لعلهم ينبرون لحل هذه المعضلة، بالطريقة التي يهديهم إليها علمهم، والتي من شأنها أن تحافظ على سلامة اللغة وتضمن نطق مفرداتها نطقاً سليماً، يؤدي المعنى المقصود بدقة، ويحول دون أي لبس أو غموض أو تغيير في المعنى.

فهل يمكن أن تنهض مجامع اللغة العربية، في الوطن العربي بهذه المهمة العظيمة، عبر جهد مشترك وعمل مؤسسي منظم، يؤدي إلى تجاوز الحالة الراهنة المقلقة؟ إنها جبهة أخرى من جبهات المقاومة، التي يجب أن ينهض بها القادرون، حفاظاً على وجود الأمة، ودرءاً للمزيد من تهشيمها وتهميشها، وحماية لمقوماتها، وعلى رأس هذه المقومات لغتها الجميلة. لغة القرآن والعلم والحضارة، التي شعت بأنوارها على البشرية كلها، ذات يوم.